

علاقة هذا العلاج الجمعي بالفلسفة (2)

عن الديالكتيك

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD210413.pdf>

بروفيسور يحيى الرخاوي

mokattampsy2002@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

نشرة "الإنسان والتطور" 2013/04/21
السنة السادسة - العدد: 2060



مقدمة

أنهت النشرة السابقة بوعده بالحديث عن هيكل والديالكتيك، ولعل هذا هو أصعب مراحل تقديم الخلفية النظرية لهذا العلاج، وفيما يلي بعض ما يوضح موقفى إزاء هذه القضية:

أولاً: منذ وصفت هذا العلاج بأنه "تنشيط ديالكتيك النمو" وهذا مثبت بوضوح فى الكتيب المقدمة (1978) [1]، لم أعد إليه لمزيد من الإيضاح وحتى الآن.

ثانياً: إن قراءة هيكل أو الاستشهاد به أو فهمه، كل ذلك يمثل لى مهمة صعبة، لا أزعم أنى فى مستوى تناولها.

ثالثاً: إن الحديث عن الديالكتيك، أو الكتابة فيه، هو ضد الديالكتيك نفسه (هذه ليست مقولتى، ولا أذكر أين قرأتها لكنها أفادتتى كثيراً)، لكنها مقولة صحيحة، بالغة الدلالة.

رابعاً: جرى استعمال لفظ الديالكتيك فى علاجات نفسية، مفيدة وهامة، لكنى وجدتها أبعد ما تكون عن ما وصلنى من هذا اللفظ، ومن استعماله له لشرح طبيعة العلاج الجمعى الذى نمارسه، ومن ذلك العلاج السلوكى الديالكتيكى Dialectic Behaviour Therapy، وقد ابتدعته مارشا لينهان 1999 Marsha M.Linehan، [2] وهو علاج ليس له علاقة بالعلاج الجمعى بالذات، كما أن آلياته وأساليبه مليئه بالمناقشات والتوجيهات والتدريبات السلوكية الظاهرة، يهدف كثير منها إلى تعديل الأفكار السلبية والسيطرة على موجات الانفجار الانفجارية، كما أنه يمثل إحدى تجليات العلاج المعرفى المتتالية مثله مثل علاج القبول والالتزام Acceptance Commitment Therapy أو علاج "شحن الذهن" Mindfulness الذى يساعد المريض على احتواء فرط الانفعال... الخ، وما لكل ذلك من آليات لا تستعمل عادة فى العلاج الذى نمارسه، بل إن بعضها نتجنب استعماله بشكل محدد، لكثرة ما فيه من التوجيهات والتدريبات.

خامساً: لم أجد كلمة بالعربية - للأسف - تفيد ما وصلنى من الكلمة بالانجليزية Dialectic، بل إن الكلمات الجاهزة للترجمة مثل جدل وجدال تفيد أنواعا من الحوار (الفكرى واللفظى والتجريدى) تبعدنا عن حقيقة حركية الديالكتيك كما وصلتنى وكما أود أن أنجح فى تقديم بعض أبعادها.

سادساً: إن انتمائى الأساسى الجوهرى لنظريات التطور جعلنى أفهم كيف أتعامل مع ظاهرة الديالكتيك بشكل عام على أنها أساس فى حركية "الطفرة" التى تتخلق منها الأنواع من خلال الجدال الحيوى بينها، وأنا اعتبر هذا فرض يحتاج إلى فحص من علماء التطور أساسا وليس من علماء النفس

إن انتمائك الأساسى الجوهري لنظريات التطور جعلتك أفهم كيف أتعامل مع ظاهرة الديالكتيك بشكل عام على أنها أساس فى حركية "الطفرة" التى تتخلق منها الأنواع من خلال الجدال الحيوى بينها

اكتشفت أن عموض طبيعة الإدراك المتجاوز للحواس إنما يرتبط بشكل ما بعموض طبيعة الديالكتيك وصعوبة تناولها

لم نتعود أن نتحدث عن علم النفس بمعناه الناتج النامك المتجدد النابض الممتد لحركية النمو الديالكتيك للجهاز العصبى كله فى احتكاكه المستمر بالبيئة (وخاصة بالآخر الإنسانك)

إن الديالكتيك هو حركة المواجهة المتلاحمة

أو الطب النفسى.

سابعاً: إننى مثل كثير من الفروض التى وصلت إليها من خلال غوصى فى فعل الإدراك ودوره فى الحفاظ على الحياة عبر التاريخ (قبل وبعد التفكير واللغة) قد اكتشفت أن غموض طبيعة الادراك المتجاوز للحواس إنما يرتبط بشكل ما بغموض طبيعة الديالكتيك وصعوبة تناولها.

ثامناً: بفضل التركيز المتماهى فى "هنا والآن" فى هذا العلاج الجمعى الذى نمارسه وصلنتى من نشاط مجموعات بشرية لا تتناقش ولا تتحاور ولا تتصارع مع بعضها البعض، وإنما تتفاعل وتتواجه و"تتاذك" [3] أسبوعاً بعد أسبوع (بل ثانية بعد ثانية، بل فى أجزاء الثوانى) وصلنتى طبيعة حركية التواصل البشرى على مسار النمو الإنسانى بشكل لا يفسرهُ إلا الملامح الأعمق لهذه العملية المسماة الديالكتيك.

تاسعاً: قدرت أن تقديم الديالكتيك قد يتضح ولو نسبياً إذا أكدنا ابتداءً على ما هو ليس هو كالتالى:

- (1) ليس الجدل حواراً عقلياً كما يتصور البعض.
- (2) وليس محدد بصراع بين ضدين بمعنى "الصراع" Conflict، ومن ثم تحقيق درجة مناسبة للتكيف فى محاولة حل هذا الصراع.
- (3) كما أنه ليس حلاً توافقياً وسطاً بين قطبين على أقصى محور ممتد، أى أنه ليس "حلوسطاً" Compromise تسكيناً.
- (4) ولا هو احتواء أحد المتصارعين للآخر.
- (5) وليس الديالكتيك مبرراً للحفاظ على سلبيات الحياة بجوار أو حتى بداخل إيجابيتها (ولعل هذا الفهم الخاطيء هو ما استثارت كيركجارد ضد هيجل ضد اجتماع الأضداد بالذات حتى الرفض).
- (6) ولا هو عملية تبادلية تسمح باتفاق دورى يتم من خلاله تبادل الأدوار وتتأوبها بين المتناقضين بشكل منتظم، لأن هذا ينتمى إلى "الإيقاع الحيوى" وهو أحد آليات التطور، وأساس استمرار الحياة، وله علاقة بحركية الديالكتيك، لكنه ليس هو.
- (7) وأخيراً: فالديالكتيك تجريداً منفصلاً عن عيانية نشاط المخ، ولا عن الأساس البيولوجى للنمو والحياة.

تعريف النفس من هذا المنطلق (البيولوجى/الديالكتيكى) ماهية النفس:

ألنا أن نتحدث عن النفس: بمعنى نشاط المخ، أو بمعنى رمزى تجرى فتنفصل عن المخ والجسد بلا تحديد، أو بمعنى دينامى على أساس أنها محصلة قوى متصارعة مع بعضها، ولكننا لم نتعود أن نتحدث عنها بمعنى الناتج النامى المتجدد النابض الممتد لحركية النمو الديالكتيكى للجهاز العصبى كله فى احتكاكه المستمر بالبيئة (وخاصة بالآخر الإنسانى).

ماهية الديالكتيك:

"إن الديالكتيك هو حركة المواجهة المتلاحمة الحية الصادقة بين الأضداد.. التى إذا استمرت فى حيوية لوقت كاف .. دون أن تقضى على الكائن الحى (أو على الشعب أو على الفكرة) فإنها قادرة على تفعيل هذه الأضداد فى كل جديد مختلف نوعياً، وأقدر كماً من مجموع أجزائه، وبالتالي فهذا الكل الجديد هو ذو نوعية جديدة وله قوانين جديدة...."

فالديالكتيك الحى ليس فيه غالب ومغلوب، بل ولا سلب وإيجاب، بل ولا حسن وسئ، وإنما أدنيان إلى أرقى، ولا شك أن هذه الفكرة قد خطرت كأمل عند المفكرين الإنسانين فى علم النفس بل ومرحلة طبيعية فى نمو الشخصية ويظهر هذا واضحاً فى تفكير ماسلو، وحديثة عن مرحلة اختفاء الاستقطاب بين المنطق والنزوة، بين الوسيلة والغاية، وبين الأثنية والأثرة.. الخ وهو فى حديثه عن

الحية الصادقة بين الأضداد.. التذ إذا استمرت فك حيوية لوقت كاف .. دون أن تقضى على الكائن الحى (أو على الشعب أو على الفكرة) فإنها قادرة على تفعيل هذه الأضداد فى كل جديد مختلف نوعياً، وأقدر كماً من مجموع أجزائه، وبالتالي فهذا الكل الجديد هو ذو نوعية جديدة وله قوانين جديدة...."

الديالكتيك الحى ليس فيه غالب ومغلوب، بل ولا سلب وإيجاب، بل ولا حسن وسئ، وإنما أدنيان إلى أرقى

من هذا المنطلق تصبح الأعراض هك مضاعفات الحركة التطورية الديالكتيكية إذا ما فرضت على الكيان البشرى قبل أن يستوعب المرحلة السابقة وقد استكملت مقومات نمائها واستعدادها، لتخليق الولاف

العلاج النفسى من هذا المنطلق هو مساعدة هذه الحركة التطورية على مواصلة هذه المرحلة إلى الولاف الأعلى .. ، أو على

حل هذا الاستقطاب Resolution يتحدث عن الولايف Synthesis ويتكلم عن الاتحاد التعاوني Synergic Union ولكن الذى أعنيه هنا ليس تكرار ألفاظ هذا الأمل ولكن محاولة تفسير حقيقة طبيعية خوض التفاعل الديالكتيكي (لا مجرد الاتحاد أو التعاون)، ثم الإشارة إلى أن الطريقة محددة المعالم والبيئة (المحيط) واضحة القوانين هى المناخ الذى يتيح لهذا الديالكتيك الحيوى أن يستمر تصاعداً.

ماهية الأعراض:

من هذا المنطلق تصبح الأعراض هى مضاعفات الحركة التطورية الديالكتيكية إذا ما فرضت على الكيان البشرى قبل أن يستوعب المرحلة السابقة وقد استكملت مقومات نمائها واستعدادها، لتخليق الولايف التالى:

ماهية العلاج النفسى:

وبالتالى فيكون العلاج النفسى من هذا المنطلق هو مساعدة هذه الحركة التطورية على مواصلة هذه المرحلة إلى الولايف الأعلى . . . ، أو على التراجع عن هذه المحاولة حتى تستعد وتستكمل مقومات الحركة الناجحة فى الخطوة القادمة.

خطوات ومثابرة:

إن العلاج النمائى عموماً وخاصة العلاج الجمعى - يخطط لما أسميناه **تنشيط حركية الحياة بإحياء ديالكتيك النمو** ويشمل ذلك خطوات متكاملة متعاقبة متداخلة معاً، تتم ممارستها من خلال فنية تحريك الوعى، أفراداً وجماعة، وقياس كل ذلك بالنتائج الظاهرة ما أمكن ذلك، وأيضاً بالمتابعة لرصد نتائج الفروض المشيرة إلى حتمية التغيرات المتناهية الصغر القابلة للتكثيف وإعادة التشكيل، ومن ذلك:

(1) تتعة الجمود الساكن لتخثرات متفرقة، أو لكتلة الشخصية المتوقفة أو المتكلسة أو الدائرة فى المحل، وذلك من خلال التحريك الفنى العلاجى بكل آليات هذا العلاج بدءاً بالتركيز فى "هنا والآن" وبالسيكودراما، وأداء العكس، والألعاب النفسية بأنواعها وبكل ما ذكرنا وسوف نذكر من تقنيات.

(2) إعادة مواجهة هذه القوى مع بعضها البعض لا لإحياء للصراع فى ذاته، وإنما لإعادة تقييم التناقض، والاعتراف بوجود أطرافه، ومن ثم التنشيط فالتحريك، فالديالكتيك، فالنمو.

(3) الحفاظ على استمرار هذه المواجهة وتصعيدها بالدرجة التى تسمح بها دعامة المجموعة والمعالج.

(4) تجنب القصد فى ترجيح أى منظومة (بيولوجية كيانية) بذاتها، مهما شاع أنها الأقدر تكيفاً والأكفأ قيادة (لهم إلا مرحلياً: انظر بعد) بمعنى أن المطلوب ليس هو - مثلاً- مجرد ترجيح الأنا Ego الفرويدى، أو "الفتى" ADULT التفاعلاتى، أو التلقائية الجشالتية.

(5) مواكبة مراحل النمو المتصاعدة، حيث كل وحدة أكبر من سابقتها - ولكنها وسط على الطريق - والوحدة تتم: بنجاح التوليف لتشكيل وحدات أكبر، وأيضاً: باحتواء مؤقت للجزء المتبقى من الضد الذى لم يتم تمثله لحين تحريك جديد فى نبضة نمو جديدة طبيعية، أو من خلال التنشيط العلاجى.

(6) مع استقرار الوحدة الأكبر (التي تسمى الولايف الأعلى Higher Synthesis) لفترة تؤكد فيها نوعيتها فإنه يتم السماح بتحريك جديد يسمح بظهور الجزء المحتوى داخلها ليلتحم بالتناقض خارجها وتبدأ مواجهة جديدة ... وهكذا ..

(7) باستمرار هذه العملية وتكرارها يقل هذا الجزء المحتوى بعد كل نجاح أعلى حتى يبدو وكأنه يمكن أن يتلاشى (ولو نظرياً) وهنا يكاد يصبح الوجود مطلقاً والتكامل خالداً وهذا غير وارد

التراجع عن هذه المحاولة حتى تستعد وتستكمل مقومات الحركة الناجحة فى الخطوة القادمة

إن العلاج النمائى عموماً وخاصة العلاج الجمعى - يخطط لما أسميناه **تنشيط حركية الحياة بإحياء ديالكتيك النمو** ويشمل ذلك خطوات متكاملة متعاقبة متداخلة معاً، تتم ممارستها من خلال فنية تحريك الوعى، أفراداً وجماعة، وقياس كل ذلك بالنتائج الظاهرة ما أمكن ذلك

مواكبة مراحل النمو المتصاعدة، حيث كل وحدة أكبر من سابقتها - ولكنها وسط على الطريق - والوحدة تتم: بنجاح التوليف لتشكيل وحدات أكبر، وأيضاً: باحتواء مؤقت للجزء المتبقى من الضد الذى لم يتم تمثله لحين تحريك جديد فى نبضة نمو جديدة طبيعية، أو من خلال التنشيط العلاجى

مع استقرار الوحدة الأكبر (التك) تسمى الولايف الأعلى Higher Synthesis) لفترة تؤكد فيها نوعيتها فإنه يتم السماح بتحريك جديد يسمح بظهور الجزء

عمليا طالما يظل الانسان كائنا بشريا، ولكنه قد يتجلى للحظات في الابداع والتصوف ومثل ذلك من خيرات ...

(8) بما أن هذا الهدف الأبعد هو هدف نظري بالضرورة فالحركة تظل مستمرة (إيقاعيا) نحو التكامل إلى أبعد مما نستطيع أن ندركه في حياة الإنسان الفرد المحدودة حتى الآن.

وبعد

هكذا نستطيع أن نراجع طبيعة هذا العلاج قيد البحث من خلال هذا المنظور بأن نعيد تأكيدنا أنه ليس كبتاً، ولا قمعاً وتحكما ولا تصالحاً وتبادلاً بين أجزاء أو كيانات النفس، وإنما هو تنشيط حركية تهدف إلى تهيئة الظروف المساعدة لإنجاح هذه الخطوات التطورية بعد أن هددها الفشل في صورة المرضى وأعراضه .. وذلك للوصول إلى الولايف وهكذا.

ملحوظة: في حالة مجموعات المواجهة تجرى نفس هذه الخطوات دون الحاجة إلى التعامل مع أعراض وأمراض، وإنما نتيجة للوعي ببطء خطوات النمو والرغبة التلقائية في إحياء الحركة وكسر الجمود ضد الابداع. ولهذا حديث آخر.

المحتوى داخلها ليلتحرم
بالتناقض خارجها وتبدأ
مواجهة جديدة ...
وهكذا ..

بما أن هذا الهدف
الأبعد هو هدف
نظري بالضرورة
فالحركة تظل مستمرة
(إيقاعيا) نحو التكامل
إلى أبعد مما نستطيع
أن ندركه فك حياة
الإنسان الفرد المحدودة
حتى الآن

إنما هو تنشيط حركية
تهدف إلى تهيئة
الظروف المساعدة
لإنجاح هذه الخطوات
التطورية بعد أن
هددها الفشل فك
صورة المرضى وأعراضه
.. وذلك للوصول إلى
الولايف وهكذا

[1] - مقدمة في العلاج الجمعي، عن البحث في النفس والحياة، يحيى الرخاوي، دار الغد للثقافة والنشر.

[2] - Janowsky, David S. (1999). Psychotherapy indications and outcomes. Washington, DC: American Psychiatric Press. p. 100. ISBN 0-88048-761-5.

a b Linehan, M. M. & Dimeff, L. (2001). Dialectical Behavior Therapy in a nutshell, The California Psychologist, 34, 10-13.

[3] - أول مرة استعمل فعل تداك من ديالكتيك، وأعتقد أنه قد آن الأوان لنحته فوراً تخرج من هذا المأزق. تداك، يتداك، أي عاش لعلنا الديالكتيك ومارسه فهو متداك والاسم ديالكتيك.

*** **

وحدة الدراسة والبحث في الإنسان والتطور

" قراءة النص البشري من منظور تطوري انطلاقاً مما إدراك أ. د. يحيى الرخاوي "

الإصدار الفصلي لنشرة " الإنسان والتطور " (حسب المحاور)

خريف / شتاء 2012/2013

" في تجليات ماهو موت "

بروفيسور يحيى الرخاوي

rakhawy@rakhawy.org

mokattampsy2002@hotmail.com

مستند اكروبات

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookAutumn&Winter13.pdf

مستند مضغوط

www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakBookAutumn&Winter13.exe

<https://www.facebook.com/notes/arabpsynet-mails/447717871977992>